

ملء الزمان

"لما حان ملء الزمان أرسل الله ابنه"

كطرفه عين تمرّ السنون، وتتوالى الأيام كالحلم، ويتصارع الإنسان مع الزمن ليحافظ عليه، ويجد أنه لا يبقى منه إلاّ الذكريات! تشكّل الأعياد المحطّات الرئيسيّة التي تريد أن تعطي للزمن معناه، أو أن تقف على أهمّ معانيه. فلم يكتفِ الناس بتوالي السنوات على الدورة الشمسيّة وبتوالي الفصول، التي تعطيه الفرصة لحساب الزمن والتأمّل فيه؛ بل استخدم الدورة القمريّة للشهور، ومن ثمّ الأسبوع لضبط الأيام وأضاف المسيحيّون خاصّة العديد من الأعياد بالإضافة إلى المتتاليات في النظام الطبيعيّ. هكذا تسمح الأعياد العديدة للإنسان بضبط الأيام وفهم معانيها على أحسن حال. ولا يعود هكذا التاريخ مجرد أرقام بل يصبح تاريخاً مقدّساً، بين حياة الإنسان وبين حياة الله وقدّسيه.

"العيد" يعتمد على الماضي لأنه يُحي ذكرى حدثٍ سلف. ولكن العيد حدثٌ في الحاضر ويتطلّب طقوساً وخلقاً وتصرفاتٍ مناسبةً مع الذكرى التي يحييها. والعيد أيضاً، هكذا، هو تحديد وجهة حياة للمستقبل. فنحن حين نعيّد نعبر بتفاصيل العيد، من صلوات وأفراح وطقوس وعادات، نعبر عن المستقبل الذي نريده.

"إننا نحتفل اليوم بمجيء الله إلى الإنسان أو بالأحرى بعودتنا إليه"، يقول القديس غريغوريوس اللاهوتيّ. لأنّنا نعيّد لإرسال الله الأب ابنه الوحيد إلينا، نعيّد لمجيء الله إلى الإنسان أو بالأحرى، يُضيف القديس، نعيد لـ"عودتنا إليه". نعم إذا كان عيد الميلاد يُحي من الماضي ذكرى مجيء الربّ يسوع "الإله الكلمة الذي قبل الدهور" إلينا بالجسد، فإنّ العيد يُعلن أيضاً ومباشرة رغبتنا بالعودة إليه. "لقد تأنس الإله ليتألّه الإنسان". هذا هو ماضي عيد الميلاد وهذا هو المستقبل الذي نعلمه منه. لذلك علينا إحياء الحاضر الذي يقرأ هذا الماضي ويضمن لهذا المستقبل.

إذن علينا أن نمضي أيام الميلاد في تذكّر تجسّد الربّ وإعلان تألّه الإنسان، لهذا يرّم القديس غريغوريوس: "المسيح أتى من السموات فاستقبلوه، المسيح على الأرض فارتفعوا". "فلنعيد هذا العيد لا كما يحتفل الوثنيّون بل بطريقته الإلهيّة، لا كشيء يخصنا نحن بل كشيء يخصه هو (الربّ يسوع)، لا كخليقة قديمة بل كخليقة مستعادة". هذه أقوال القديس غريغوريوس اللاهوتيّ.

"يسوع" هو سبب العيد وموضوعه وغايته! إنه الوحيد الذي يعطي للأعياد، وهذا العيد بالأخص، معنىً. لذلك نعطي لعيد الميلاد معناه حين تدور أفراحنا وطقوسنا وكل لحظة وكل حركة في الميلاد، حول يسوع؛ إننا نحتفل به ونعلن عودتنا إليه، لا بل صيرورتنا مثله!

كيف تعبّر عادتنا وبرامجنا الميلاديّة عن هذه الحقيقة؟ كيف نُحيي إذن هكذا حدث ونحياه ونعلن منه هكذا حقيقة في كلّ لحظة من أيام عيد الميلاد؟

هاتان الولادتان، ولادة يسوع أولاً، وبالأحرى تجديد ولادتنا كخليقة جديدة على شبهه ثانياً، هما معنى وغاية عيد الميلاد. لقد وُلِدَ هو أولاً لنولد ثانية نحن، وجاء هو لنعود نحن، وتواضع هو لنترفع نحن، أخذ عارنا لنأخذ مجده؛ هذا ما يجب أن تعبّر عنه كلّ لحظة في يوم العيد. هذا ما يجب أن تعبّر عنه صلواتنا ومشاركتنا الحيّة والفعليّة والعميقة فيها؛ هذا ما يجب أن تعبّر عنه لقاءاتنا واجتماعاتنا، وكذلك ألبستنا والأطعمة وكلّ شيء لنا وكلّ شيء فينا. لقد وُلِدَ يسوع، ليولدَ في كلّ منّا اليوم يسوع آخر. جاء هو على شبهنا لنصير نحن اليوم على شبهه. كلّ منّا كان قبل العيد "فلاناً"، ويصير في العيد "يسوعاً". الميلاد ليس ذكرى وحسب. الميلاد حدثٌ، إنه ولادة على شبه ولادة يسوع تصير في كلّ منّا، ليس بالخليقة ولكن بالخلق.

نبحث عن الفرح في الأعياد، وحاشى لنا أن نحصره في زهو اللباس أو متعة الأطعمة أو ضجيج الاحتفالات. فإننا لا نعيّد للناس بل للربّ. وهل من فرح أثمر وأعمق وأشرف من فرح الولادة الثانية، الولادة بالروح، أو تجديد الولادة! لا فرح أثمر من التأمل بولادة الربّ وحبّه لنا حتّى أنّه جاء إلينا في شبهنا. لا فرح أثمر من الشعور أنّنا نصير على شبهه وقد خلعنا عنّا شبه العالم القديم. لا فرح أثمر من الإدراك أنّ ولادة الربّ يسوع تعمل شيئاً في ولادتنا وحياتنا. لا فرح أثمر من استمداد حياة يسوع في العيد لتصير ينبوع حياتنا؛ لا بل أن تصير حياته حياتنا. ولادة يسوع خميرة توضع اليوم في عجين العام لتخمّر حياتنا وولادتنا كلّها.

هذه الولادة سنستمدّها من الصلوات بقدر ما نستعدّ لها بعمق ونشارك فيها بمعرفة. هذه الولادة سنحفظها حين نجعل كلّ احتفالاتنا ليست إلاّ تعبيراً عنها. الميلاد يوم للفرح، ولكن عن أيّ فرح نتكلّم إلاّ عن فرح بيسوع الآتي! طفل المغارة هو صورتنا الروحيّة اليوم، وغداً سنصير في الظهور بشري سارة للعالم كما كان هو. هذا هو حدث الميلاد وهكذا أعيادنا في الميلاد.

سيعظم الفرح أكثر وأكثر بعد كلّ لحظة من لحظات الميلاد، وستنطلق الصرخة من القلوب المعيّدة للميلاد، من يسوع وبيسوع وإلى يسوع، مرثمة "يا مَنْ رفع شأننا يا ربّ المجد لك".